# مفهوم التَشَيُؤ والوعي الزائف
# دراسة مقارنة بين كارل ماركس وجورج لوكاش

أ.م.د. حسام الدين علي مجيد
hussamalddin.majid@su.edu.krd
كلية العلوم السياسية-جامعة صلاح الدين-اربيل

**الملخص**

يختلف لوكاش مع ماركس حول السبب الكامن وراء ظاهرة التشيؤ وآثارها. فماركس يؤكِّدُ على أنَّ التشيؤ يتولَّد بفعل الاغتراب والوعي الزائف في صفوف البرجوازية، ثم يتسع تدريجياً حتى يشمل سائر طبقات المجتمع. أما لوكاش، فيؤمن بأنَّ التشيؤ هو السبب وراء نشوء الاغتراب والوعي الزائف. هذا الاختلاف في زاوية النظر أفضى بدورهِ إلى إختلاف آخر بصدد طبيعة العلاقة المتبادلة بين البروليتاري بوصفهِ الطرف الخاضع، وبين البرجوازي بوصفهِ الطرف المُهيمن. كما أنَّ التشيؤ اللوكاشي إنَّما يتوسَّعُ مجتمعياً وبشكلٍ تدريجي نتيجة التشيؤ الذاتي، حيث تقوم البروليتاريا بِشَيْئَنَةِ نفسها ذاتياً. هذا العامل الذاتي وفاعلية تأثيرهِ لم يقل بهِ ماركس صراحةً. ومع ذلك، يتقاسم ماركس ولوكاش فكرةً بقاء روحية الثورة والقدرة التغييرية لدى البروليتاريا، بحكم حيازتها للوعي الطبقي الحقيقي وليس الزائف.

**الكلمات المفتاحية:** التَشَيُؤ، جورج لوكاش، كارل ماركس، الوعي الزائف ، الهيمنة السياسية.

**The concept of objectification and false consciousness: comparative study between Karl Marx and George Lukacs**

**Assist. Prof. Dr Hossam El Din Ali Majeed Salahaddin**
**University - Erbil / College of Political Science**

**Abstract:**

Lukacs disagrees with Marx on the underlying cause and effects of reification. Marx asserts that reification generated alienation and false awareness among the bourgeoisie and gradually expanded to include all classes of society as for Lukács, reification is the reason behind the emergence of alienation and false consciousness. This difference in the angle of view led to another difference regarding the nature of the mutual relationship between the proletarian as the submissive party and the bourgeoisie as the dominant party. The Lukacchi reification is expanding socially as self-reification, whereby the proletariat is self-representing itself. Marx did not mention these subjective factors and the effectiveness of their influence explicitly. However, Marx and Lukács share the idea that the spirit of revolution and the transformative capacity of the proletariat remains by its possession of a right and not a false class consciousness.

***Keywords:*** objectification, George Lukacs, Karl Marx, false consciousness, political hegemony.

**المقدمة**

كان ثمّة نقاش فكري في طور النمو منذ العام ١٩٢٤ بين مجموعةٍ من الماركسيين الناطقين بالألمانية، ثم تَبلْورَ تدريجياً إلى اتجاهٍ فكري يُعرف بتسمية "الماركسية الغربية Western Marxism"[١]. بحيث شكَّل دُعاتهُ مركزاً فكرياً

[١] اُستخدِمَ هذا المصطلح لأول مرة من قبل الشيوعيين السوفييت، بهدف الانتقاص من قيمة العودة إلى الأفكار الاشتراكية ما قبل ماركس، ولكن سرعان ما تمَّ تبنيهِ من قبل المثقفين الأوروبيين الذين شَمَلَهم هذا التوصيف مثل: جورج لوكاش (١٨٨٥-١٩٧١) وأنطونيو غرامشي وكارل كورش، كذلك كارل مانهايم ووالتر بنيامين وماكس هوركهايمر وغيرهم، ممنْ شكَّلوا بدورهم تياراً ماركسياً أكثر استقلالية ونزعةً نقدية، ويتسم بأقل قدر من الجمود العقائدي مقارنةً مع الماركسية الأرثوذكسية بعامة والماركسية اللينينية بخاصة. ثم تطور هذا الاتجاه منذ السبعينيات المنصرمة وتوزع على اتجاهاتٍ عدة. للمزيد من التفاصيل أنظر:
Takahiro Chino, Western Marxism or Marxism in the "Periphery"? The cases of Gramsci and Tosaka, European University Institute, Italy, 2015, pp. 1-2, 6, 12.

لجذب الاتجاهات الماركسية غير اللينينية، عبر مراجعة نصوص كارل ماركس وفريدريك أنجلز في ضوء فكرة تكييفها مع البيئة الأوروبية القائمة على أُسس الليبرالية والديمقراطية، بهدف إعادة توجيه النظرية الماركسية وتغذيتها بقيمٍ ومعايير فكرية وثقافية سَعَتِ الماركسية–اللينينية بخاصة إلى طَمْسِها بوصفها أيديولوجية الاتحاد السوفيتي السابق.

**اهمية البحث**

وتتجلّى أهمية هذا الاتجاه الفكري ورائدهُ المفكر الهنغاري جورج لوكاش من زاويتَين رئيستَين: تتمثل الأُولى في أصالة منهجيتهِ العلمية بعامة، إذ تستندُ إلى قناعتهِ بأنَّ الماركسية الأصلية لا تعني التسليم الأعمى لِنتاجات بحوث ماركس، كما لا تعني الإيمان بنظريةٍ أو بأُخرى في تفسير نصوص ماركس. بل إنَّ هذه الأصالة تعني "الرجوع إلى المنهج بشكلٍ حصري. إنَّها تتضمن الاقتناع العلمي القائل أنَّهُ بالجدلية الماركسية وُجِدتْ منهجية البحث الصحيح، وأنَّ هذه المنهجية لا يمكن تطويرها وتكميلها وتعميقها إلا باتجاه مؤسِّسيها؛ إذ أنَّ كل المحاولات لِتجاوزها أو لِتحسينها لم تُوصِلْ إلا لابتذالها والانتقاص منها"[٢]. أما الزاوية الثانية فتتجسَّدُ في سعة تأثير لوكاش واتجاههِ الفكري في النظريات السياسية المعاصرة سيّما كل من الديمقراطية الاجتماعية، ومدرسة فرانكفورت النقدية وغيرهما من الاتجاهات الاشتراكية ما بعد ماركس. مما يدعونا إلى العناية بخصوصية طروحاتهِ من حيث ابتكارهِ لمصطلحِ التَشَيُؤ وأبعادهِ الرئيسة، ثم تحويلهِ إلى نموذجٍ نظري مستقل يتمتع بتأثيرهِ الملحوظ في قراءة المشكلات السياسية المعاصرة.

[٢] جورج لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة د.حنّا الشاعر، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٨٢، ص ص ١٣-١٤.

**اشكالية البحث**

هناك إشكالية رئيسة تتجسَّدُ في عدة أسئلة متلازمة هي: ماذا يعني التَشَيُؤ من حيث المبنى والمعنى لدى ماركس ولوكاش؟ ومنْ الذي يَتسبَّبُ في نشوء الآخر: التشيؤ أم الاغتراب ولماذا؟ وكيف يُعالِجُ ماركس ولوكاش ظاهرةَ التَشَيُؤ وآثارها على المستويَين الفردي والمجتمعي، وماهيّة علاقتها بالوعي الطبقي الزائف والإغتراب الاجتماعي، كذلك كيفية إحداث التغيير السياسي في ظلِّ استمرارية النظام الرأسمالي وقُدرتهِ الفعّالة على التكيّف والتجدد.

**فرضية الدراسة**

أما فرضية الدراسة فتشيرُ إلى وجود علاقة تأثير متبادلة في النظرية الماركسية ما بين التشيؤ الرأسمالي بوصفهِ سبباً وبين الوعي الزائف للبروليتاريا باعتبارهِ نتيجةً. فكلَّما اتسعتْ دائرة التشيؤ اتسعَ معها بالضرورة نطاق الوعي الزائف والاغتراب الاجتماعي. لذا، يسعى البرجوازي إلى استمرارية ظاهرة التشيؤ بُغية ترسيخ النظام الرأسمالي، وفي المقابل يُحاول البروليتاري اجتثاثها بهدف بناء المجتمع العادل.

**منهجية الدراسة**

بعد الاستناد إلى المنهجَين المقارن وتحليل المضمون، سنعمدُ إلى توزيع دراستنا على محورَين: ففي الأول نسعى إلى دراسة منظور لوكاش وتطويرهِ لِمفهوم التشيؤ الماركسي وأوجهِ إختلافهِ وتشابههِ مع ماركس. أما في الثاني فنحاول تبيان منظورَيهما إلى العلاقة بين الوعي الطبقي الحقيقي والوعي الزائف من جهة، وكذلك العلاقة ما بين الوعي الطبقي والهيمنة السياسية وكيفية اجتثاث آثار التشيؤ من جهةٍ أُخرى.

**أولاً- ظاهرة التشيؤ وآثارها من منظورَي ماركس ولوكاش**

في سياق تبيان ماهيّة التشيؤ، تُشدِّدُ النظرية الماركسية بعامة على الأساليب التي انتهجها الاقتصاد الرأسمالي-بوصفهِ البنية التحتية للرأسمالية- ودورهِ الفعّال في تشكيل بُنيةٍ فوقية، ثقافية ومنتجات استهلاكية وتنظيمات سياسية، معزولة وخارجة عن سيطرة العاملين على انتاجها. فقد وَصَفَ ماركس هذا الوضع بـــ"صنمية السلع Fetishism of Commodities"، أي عبادة وقُدسية السلع والأشياء، من زاوية أنَّ لِمُنتجات وسلع الاقتصاد الرأسمالي التي صنعها العمال حياةً وسيطرةً خاصةً بها. فأطلق على هذه الحياة تسمية "قِوى السوق"، بحيث صار للاقتصاد كياناً مستقلاً بذاتهِ بدلاً من أنْ يكون صنيعةَ الانسان وطوعَ أمرهِ. ثم تقبَّل الانسان نفسه هذا الوضع على أنَّهُ أمرٌ حتمي ولا مَهْرَبَ منه. أما لوكاش فيَعْمَدُ إلى تسميتهِ بـــ"التشيؤ Reification"، ويعني بهِ أنْ الافراد الذين ينتمون إلى المجتمع الرأسمالي، ينظرونَ إلى "الحقيقة" من حولهم بواسطة عدسةٍ ثقافية مشوَّهة، إلى درجةِ أنْ تظلَّ حقيقة هذا المجتمع مَحجوبةً عن الانظار بأُسلوبٍ منظَّم[٣]. الأمر الذي يقتضي سَبر غور هذين المنظورَين وأبعادهما الرئيسة بالشكل الآتي:

**1- التشيؤ بوصفه نتاجاً للاغتراب عند ماركس**

يرى ماركس: "إنَّ الرأسمال التجاري ليس في البدء إلا حركة التوسط بين أطرافٍ ليس هو سَيِّدها وظروفٍ لا يَخلِقها" بالضرورة. بحيث أنَّ التحوّل النوعي للصيغة التجارية للرأسمالية إلى صيغةِ سيطرةٍ حقيقية على مُجمل المجتمع لم يظهر إلا مع الرأسمالية الصناعية. وعليهِ، كانت المراحل السابقة

[٣] أنظر ديفيد إنغليز وجون هيوسون، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة لُما نصير، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٣، ص٤٣.

على ظهور الرأسمالية تَتَّسم بوضوح الطابع الشخصي للعلاقات الاقتصادية بين قوى الانتاج ووسائل الانتاج. ففي العُهود القديمة والقرون الوسطى كانت العُبودية والخِدمة تُكوِّن الأساس العَريض للإنتاج الاجتماعي، وكانت هيمنة ظروف الإنتاج على المُنتِجين هيمنةً خَفيّة بواسطة الصِلات الرابطة بين السيطرة (السلطة)، وبين الخدمة (العبودية) التى تُرى من زاوية أنَّها دافعٌ مباشر لِسَير عَجلة الإنتاج. غير أنَّهُ بقدر ما كان التطور الرأسمالي يتزايد بقدر ما أخذتْ بالظهور صيغٌ معقدة وتوسطية أكثر وضوحاً بين قوى الإنتاج ووسائل الإنتاج، ومن ثمَّ أصبح من النادر والصعب أيضاً "خَرق قِناع التشيؤ"[٤].

ويُتابِعُ ماركس تفسيرَ هذه الفكرة بالقول: "إنَّ ذلك الطابع الخَفيّ للصيغة التجارية [من المنظور الرأسمالي] يُقيِّمُ إذن ببساطة كونها تُعيدُ للناس الطابعَ الاجتماعي لِعملهم الخاص، وتَعْرِضهُ بوصفهِ طابعٌ موضوعي لِنفس نتاجات العمل، وبوصفهِ خاصيّات اجتماعية طبيعية، وبالنتيجة وبنفس الصيغة، تُصبح الصِّلة الاجتماعية للمُنتِجين في مُجمَل العمل [أي نظام العمل وتقسيم خطوط الإنتاج] صلةً اجتماعية خارجة عنهم، صلةً بين أشياء. وبهذا الخطأ تُصبح نِتاجات العمل **سِلَعاً وأشياءً تَتعَّدى الإحساس مع كونها مَحسوسة أو أشياء اجتماعية**... فَليستْ سوى الصِّلة الاجتماعية المحدودة للناس أنفسهم هي التي تَرتدي هنا وبالنسبة لهم الصيغةَ الخيالية لِترابطِ مجرد أشياء"[٥]. أي بمعنى يتولَّدُ الاعتقاد مجتمعياً بكون الأشياء المُنْتَجة وكأنَّها مسحورة أو مَسكونة بروحٍ ما، شأنها شأن "الاصنام" التي تُصنعُ لِتُعبد رغم كونها مُنْتَجة من قبل الانسان نفسه.

---

[٤] للمزيد من التفاصيل أنظر: كارل ماركس، رأس المال، ج١، ترجمة د.راشد البراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٧، ص ص٣٧-٣٩، ٤٢-٥٠.

[٥] نقلاً عن: جورج لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، مصدر سابق، ص٨٢.

وهو ما دَعى ماركس لوصف هذه المُنتجات بـــ"الصَنَمية Fetishism". ثم إنَّ استمرارية تقسيم العمل بصورةٍ منهجية وبعيدة المدى تقودُ بالضرورة إلى تشظية العلاقات الاجتماعية للبروليتاريا. ذلك "أنَّ أشياء الاستهلاك [تلك] لا تُصبحُ بضائع بشكلٍ عام إلا لأنَّها مُنتجاتٌ لأعمال خاصة مستقلة بعضها عن بعض. وإنَّ مجموع هذه الاعمال الخاصة يُشكِّلُ العمل الإجمالي للمجتمع. وبما أنَّ المُنتِجين لا يدخلون في اتصالٍ اجتماعي فيما بينهم إلا عن طريق تبادل منتجات عَملهم [أي التبادل التجاري]، فإنَّ الطابع الاجتماعي المتميز لأعمالهم الخاصة لا يتحقّق واقعياً كحلقات [مستقلة ومُتسلسلة] للعمل الاجتماعي الإجمالي إلا من خلال تلك العلاقات الي يُقيمها التبادل بين مُنتَجات العمل وبواسطتها، وبين المُنتِجين أنفسهم أيضاً. ولذا، تبدو للأخيرين، أي المُنتِجين، العلاقات الاجتماعية لأعمالهم الخاصة كما هي عليهِ في الواقع، أي ليس كعلاقات اجتماعية مباشرة بين الأشخاص أنفسهم في عملهم، بل على العكس، هي **علاقات شيئية بين الأشخاص وعلاقات اجتماعية بين الأشياء**"[٦].

هذه المحصلة تشتمل من منظور ماركس على جانبَين متلازمَين: فمن جهة، تُنْتَزَعُ "إنسانية" الانسان وكل ما يَحويهِ كيانهُ المعنوي من مشاعرٍ ورغبات ذاتية، لِتُصبح بالنتيجة شيئاً ملموساً، كما أنَّ سلوك الانسان المُتشيء في علاقاتهِ الفردية والاجتماعية سيغدو سلوكاً مادياً بالضرورة. ومن جهةٍ أُخرى، فإنَّ هذا "الشيء" المُنْتَج، الذي يتحول اليهِ الانسان في ظلِّ النظام الرأسمالي، إنَّما يتم النظر اليهِ بوصفهِ "شيئاً" ذي مكانةٍ سامية وإرادةٍ مستقلة تعلو على الإرادة البشرية. لذا، لا يعني "التشيؤ" مجرد تحويل الانسان إلى شيءٍ ملموس نتيجة

[٦] كارل ماركس، رأس المال: نقد الاقتصاد السياسي، المجلد١، الكتاب١: عملية إنتاج رأس المال، ترجمة د.فهد كم نقش، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٥، ص١٠٨.

اندماجهِ الطوعي في عالم الآلات والأشياء، بل يُشيرُ أيضاً إلى كون هذا الاندماج نجمَ عن تقديس الانسان للأشياء المُنْتَجة وعبادتها بالضرورة، ومن ثمَّ تقديسهِ لِمُجمل نتاجات النظام الرأسمالي، لِتبدو هذه النتاجات في نظرهِ وكأنها ليست من صُنعِ الإنسان نفسه. بل تبدو كأنَّها من حقائق الطبيعة وثوابتها، أو تعبيراً عن نتاجات القوانين الإلهية أو حتى تجسيداً للإرادة الإلهية بعينها[٧].

تبعاً لهذا المنظور، فإنَّ تجزئة الكل الاجتماعي إلى حلقاتٍ مستقلة من العمل والانتاج يُبيِّنُ من جانبٍ آخر مدى اتساع ظاهرة "الاغتراب Alienation"[٨] في أوساط البروليتاريا وكذلك عُمق تشيؤها الاجتماعي في آن واحد، أي بروز بَوْنٍ واسع بين وعي البروليتاريا وبين واقعها المَعيش في مختلف مناشط الحياة. وهو ما يُبيِّنهُ ماركس في مخطوطاتهِ لعام ١٨٤٤، إذ تتوزَّع لديهِ ظاهرة الاغتراب على حلقاتٍ كثيرة ومتداخلة وفقاً لِتباين مناشط الحياة في المجتمع الرأسمالي، وكل حلقةٍ منها تعملُ بموجب معيارٍ متناقض مع

---

[7] For more details see and compare with: Peter Berger & Thomas Luckman, The Social construction of reality: a treatise in the sociology of knowledge, Doubleday, New York, 1966, pp. 82-83.

[٨] إنَّ الجذر اللاتيني لكلمة الاغتراب (Alienatus) يعني (منْ لا يَملِكُ ذاتهُ). وقد اتسعَ استخدام هذا المصطلح في القرن التاسع عشر لينتقلَ من مجال الأدب والشعر إلى مجالات أُخرى سيَّما الفلسفة وعلوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع والنفس. ويكاد فيورباخ يكون الأكثر أهمية في هذا الشأن، نتيجة لمعالجتهِ موضوع الاغتراب الديني. فقد اعتقد بأنَّ ما يظنُّه الانسان على أنَّهُ (آخر Alius) هو في الحقيقة مجرد (وَهم)، وأنَّ الانسان إذا ما أسقطَ نفسهُ في دائرة (الآخر) المطلق، وإذا ما أسقطَ صورتهُ عن ذاتهِ وتطلعاتهِ في دائرة شخصٍ (آخر) من وحي خيالهِ أو صنيعة أفكارهِ، فإنَّهُ يكون مُغترباً. ومن ثمَّ، فإنَّ كل المواقف التي عُرِفتْ في تاريخ الفكر البشري على أنَّها مواقف مُتدينة أو ايمانية هي مواقف مُغترِبة أو زائفة، لأنَّها تستندُ أصلاً إلى وعي زائف. للمزيد من التفاصيل أنظر: د.حسن حنفي، الاغتراب عند فيورباخ، مجلة عالم الفكر، المجلد١٠، العدد١، وزارة الاعلام الكويتية، الكويت، ابريل- مايو- يونيو ١٩٧٩، ص ص ١١٦-١١٧. أنظر أيضاً:
Neni Panourgia, "Alienation", in, William A. Darity Jr. (ed.), International Encyclopedia of the Social Sciences, Vol.1, 2nd. Ed., Macmillan Reference USA, Detroit, 2008, pp.75-76.

معايير الحلقات الأُخرى، "فتطبق الأخلاق معياراً والاقتصاد السياسي معياراً آخر، لأنَّ كلاً منهما اغترابٌ مُحدَّد للإنسان، يُركز الانتباه على مجالٍ خاص"[٩]، وكذلك الحال في مجالات السياسة والدين والآداب والفنون، فلكلٍّ منها اغترابها المستقل بذاتهِ والمتعارض بالضرورة مع وضعية الاغتراب في مناشط الحياة الأُخرى، إلا أنَّها تصبُّ جميعاً في دائرةٍ واحدة هي العمل على توليد ظاهرة التشيؤ والتوسيع من نطاقها.

ففي هذا القسم من كتاباتهِ المبكرة، يذهبُ ماركس إلى أنَّهُ في ظل شروط المجتمع الرأسمالي، يَستهدِفُ أعضاءُ المجتمع العنايةَ ببعضهم بعضاً بشكلٍ غير مباشر، عبر تبادل منتوجاتهم بواسطة النقود ضمن إطار سوقٍ لا يُعنى بهم أصلاً بصفتهم الشخصية. بل "إنَّ كل عضو هو بمثابة تاجر بالنسبة للآخر". كما أنَّ الاعتراف الذي يَدين به أعضاء هذا المجتمع لبعضهم بعضاً، يأخذ شكل التأكيد المتبادل على الحق" بإلحاق الغُبن" بالآخرين. وفي الإمكان القول مع أكسل هونيث: "إنَّ العلاقة الاجتماعية [هنا] لا تقوم من خلال السلوك الذي يتم بشكلٍ فردي، بل إنَّ الذي يتم وبشكلٍ فظ هو بقصد النهب". أي أنَّ ما يُشدِّدُ عليهِ ماركس ليس إلا استعادةً للبراهين التي طَرَحَها الاشتراكيون الأوائل من مثل، سان سيمون وروبرت أوين وبيير–جوزيف بورودون، بشأن تحليل صعوبة بناء العلاقات الاجتماعية "الأخوية أو التضامنية" في ظلِّ السوق الرأسمالية. إذ لكون المشاركين في السوق لا يهتمون إلا بمنفعتهم الخاصة، فهم يعجزون عن بناء التعاطف الجماعي وكذلك تقديم الدعم المتبادل، وبالنتيجة فإنَّ

[٩]كارل ماركس، مخطوطات كارل ماركس لعام ١٨٤٤، ترجمة محمد مستجير مصطفى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٤، ص١١١.

"اعترافنا المتبادل يأخذ شكل الصراع، وفيهِ ينتصر منْ يحوزُ مقداراً أكبر من الطاقة والقوة والفطنة والمرونة"[١٠].

مما يعني أنَّ ظاهرة التشيؤ الكامل للنظامَين الاجتماعي والاقتصادي تتمخضُ بسبب استمرارية الرأسمالية الصناعية في تقسيم العمل وتشظية افراد المجتمع ومن ثمَّ اغترابهم في آنٍ واحد، كما أنَّ تَعميم الطابع الصناعي للرأسمالية عالمياً يُسبِّبُ، على الصعيد الذاتي كما على الصعيدَين الموضوعي والاجتماعي بين العمال بخاصة والمجتمعات بعامة، تجريداً كاملاً للعمل الانساني يَتموضع في دائرة السلع والمنتجات حصراً، وكأنَّ النشاط الإنساني بأسرهِ لا يدور إلا حول إنتاج الأشياء المتمثلة في السلع والبضائع. فيبدو العامل بالنتيجة "قد أضاعَ ذاتهُ، بِيعَ ووُضِعَ تحت سيطرةِ عناصر وظروف غير إنسانية"[١١]. فالاغتراب هنا، يُشيرُ إلى وضعيةٍ يتم فيها تشظية الأفراد بشكلٍ عام، بحيث يُصبحون مُنعزلين اجتماعياً ومُمزقين ثقافياً، ليكونَ ذلك تمهيداً للانخراط في مرحلة لاحقة من الاندماج القسري، التي يَشعرون فيها وخلافاً لإرادتهم بأنَّهم جزءٌ من المجتمع الصناعي اجتماعياً وثقافياً. وبُغية تحقيق هذا الهدف المركزي، تعمد الرأسمالية ومؤسساتها إلى تسخير ظاهرة الاغتراب عن العمل والسلع

[١٠] للمزيد من التفاصيل بشأن منظور ماركس إلى "الصنَمية" وآثارها الاجتماعية أنظر: أكسل هونيث، فكرة الاشتراكية، ترجمة د.جورج كتّورة، المكتبة الشرقية، بيروت، ٢٠١٨، ص ص ١٧-١٨، ٣٦-٣٨.

[١١] أنظر كارل ماركس، حول المسألة اليهودية، ترجمة د.نائلة الصالحي، دار التقدم، موسكو، بدون تاريخ، ص ص٢٣-٢٤. أنظر أيضاً: ماركس، رأس المال، المجلد١، ص ص ١٣٦-١٣٧. وإلى هذا المعنى يذهبُ "بيرغر وبولبيرغ" في تفسير معنى "لإغتراب" لدى ماركس. للمزيد من التفاصيل أنظر:
Peter Berger & Stanley Pullberg, Reification and the sociological critique of consciousness, Journal of History and Theory, Wesleyan University, Vol.4, no.2, 1965, p. 200.

بعامة لتكون السبب المركزي وراء بلورة ظاهرة تشيؤ البروليتاريا ثم المجتمع بأسرهِ.

وفي هذا السياق، يُوضح ماركس السرعةَ الكبيرة لتطور النظامِ الرأسمالي عالمياً، عبر ارتكازهِ على التكنولوجيا وتطوير الاتصالات ووسائل الاعلام الجماهيرية، عندما وصفَ تأثيرات الرأسمالية على الصعيدَين الثقافي والاجتماعي بقولهِ: "يتميَّزُ عصر البرجوازية عن العصور الماضية كلها بالثورات الدائمة في الانتاج، وبالاضطراب المستمر في كلِّ الاحوال الاجتماعية، وبحالةِ قلقٍ وعدم استقرارٍ دائمة. فَتزول العلاقات الثابتة والمتجمدة وما كان يَتبَعُها من أهواءٍ وأفكار عتيقة ومحل احترام، وتصبح تلك التي تَحُلُّ محلَّها عتيقةً حتى قبل أنْ تأخذ في التماسك والتجمد، وينهارُ كلُّ ما هو مَتينٌ ليصيرَ هباءً، ويُدَنَّسُ كلُّ ما كان مُقدساً"[١٢]. ففي هذا الوضع المضطرب، يُعاني الإنسان في المجتمع الرأسمالي سواءً أكان برجوازياً أم بروليتارياً من ظاهرة التشيؤ ولكن بدرجاتٍ متفاوتة، بحيث تجعل كل فرد سيَّما البروليتاري انعزالياً ومُنطوياً على نفسهِ وعلى مصالحهِ ورغباتهِ الخاصة. لِتَغدو الرابطة الوحيدة التي تُمسِكُ بزمام هذا المجتمع وتماسكهِ مُتجسِّدةً في ضرورة البقاء والمصلحة الخاصة، أي حفظ مُلكية الفرد وشَخصيتهِ الأنانية[١٣].

مما يَكشِفُ هذا بالضرورة عن التطور التاريخي لدور رأس المال في توليد الاغتراب ناهيك عن التشيؤ لدى ماركس. بحيث يتبيَّن معنى مقولتهِ "أنَّ رأس المال يُصبحُ قوة اجتماعية مستقلة ومُغتربِة"، كما تتضحُ طبيعة التشيؤ

[١٢] كارل ماركس وفريدريك أنجلز، بيان الحزب الشيوعي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١٨.

[١٣] للمزيد من التفاصيل أنظر ماركس، حول المسألة اليهودية، ص ص ٣١-٣٢. أنظر أيضاً: د.عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج١، منشورات ذوي القُربى، قُم، ١٤٢٧، ص٤٢١.

والاغتراب لدى كلٍّ من البروليتاري والرأسمالي في هذه العملية. ذلك أنَّ الظاهرة بعامة ذات شكلَين رئيسَين: فالاغتراب ثم التشيؤ بالنتيجة عند ماركس يُعاني منهما الرأسمالي والبروليتاري على حدٍّ سواء، غير أنَّ الرأسمالي أولاً ينظرُ إلى اغترابهِ الذاتي ثم اغتراب البروليتاريا وتشيؤها مصدراً جوهرياً لِقوتهِ واستمرارية وجودهِ، بفعل قيام هذه الظاهرة بتيسير عملية السيطرة على البروليتاريا وتسخيرها طبقياً في خدمة النظامَين الاقتصادي والاجتماعي[١٤]، فيَعمدُ الرأسمالي إلى تعميم الاغتراب بشكلٍ واسع النطاق بهدف الحفاظ على استمرارية التشيؤ بالنتيجة. أما الشكل الثاني فيتمثل في كون البروليتاري يجد في الظاهرة نفسها مصدراً لِضعفهِ وعجزهِ، من حيث أنَّها تُرسِّخ لديهِ الوعي الزائف بمصالحهِ الحقيقية، ثم تتسبَّبُ في استغلال دورهِ وسلوكهِ الطبقي لمصلحة البرجوازية وبقاء النظام الرأسمالي. وفي المقابل، فإنَّ مصلحة البروليتاري الحقيقية تتجسَّدُ في اجتثاث الاغتراب ثم التشيؤ البروليتاري، وهو ما يستوجبُ تحقيقهُ بواسطة الثورة، أي إحداث التغيير الراديكالي في علاقات وظروف الإنتاج التي تُولِّدُ الظروف المادية للاغتراب والتشيؤ معاً.

**2- التشيؤ بوصفهِ باعثاً للاغتراب عند لوكاش**

إنَّ النتيجة متقدمة الذكر قد طَرَقتْ باب التأمل والتحليل عند لوكاش، بحيث تبلورت مَعالِم رؤيتهِ حول كون الرأسمالية الصناعية تنزعُ إلى تفكيك ذاتِ الإنسان وأواصرهِ الاجتماعية، عبر بحثهِ في ماهيّة العلاقة القائمة بين الاغتراب والتشيؤ، كذلك تسليطِ الضوء على آثارها المجتمعية، والسُبل الكفيلة بإعادة بناء وحدة المجتمع العضوية. فقد راجَعَ لوكاش نصوصَ ماركس في كتابهِ: (التاريخ

[١٤] أنظر وقارن مع: د.مراد وهبه، الاغتراب والوعي الكوني: دراسة في هيجل وماركس وفرويد، مجلة عالم الفكر، مصدر سابق، ص ص ١٠٣-١٠٤، ١٠٦.

والوعي الطبقي) بخاصة، عبر مُتابعة المَسار الذي إجتازَهُ تطور سَير "العمل" منذ نشوء الحِرْفة ثم النقابة الحِرَفية مروراً بالمَصْنع وحتى المَكْنَنَة الصناعية. فَوَجدَ أنَّ هذا المَسار تَحكمهُ عقلانيةٌ متنامية دون انقطاع. بحيث أنَّ سَير العمل يغدو دوماً مُبعثراً ومُتوزعاً بشكلٍ مُتزايد إلى عمليات جزئية عقلانية. مما يُفكِّكُ الأواصر بين العامل وبين الناتج الكلي لِهذه العمليات، أي السلعة، ويُحيلُ عَملَهُ إلى مجرد "وظيفة خاصة تُعادُ آلياً"، أي تتكرر بصورة مستمرة. ومع التَفكيك الرأسمالي لِسَير العمل داخل المصنع "سَتتخلَّلُ هذه المَكْنَنَة العقلانية حتى "نفسَ self" العامل، وخصائصه النفسية التي تنفصل عن مُجمل شخصيتهِ وتتموضع بالنسبة إلى هذه النفس، لتتمكن من أنْ تَتحدَّدَ بأنظمةٍ عقلانية"، أي تصبح بالنتيجة جزءاً من أنظمةَ المكائن والآلات على امتداد نطاق النظام الرأسمالي[١٥].

مما يعني أنَّ لوكاش هنا يتفق مع ماركس من حيث كون العامل سيندمج وفقاً لِتخصّصهِ المهني مع عمليات التصنيع لِيُصبح جزءاً من الآلة التي يعمل عليها، فيُصبحُ "شيئاً" شأنهُ شأن كل الأشياء الموجودة داخل المَصْنع مثلاً. وهو ما يَسري على كافة العمال وفقاً لتقسيم العمل وتفاوت الآلات وخطوط الانتاج في المصنع نفسه. فكما أنَّ المصالح الشخصية ستغدو مستقلةً ذاتياً autonomous وتتخذ شكل مصالح طبقية، فإنَّ السلوك الشخصي للفرد أيضاً يُصبحُ سلوكاً مُتشيئاً ومُتغرِّباً في آنٍ واحد، فيغدو سلوكهُ شيئاً منفصلاً ومستقلاً عن شخصية الفرد، أي يُصبحُ قوةً مستقلة بذاتها. وإنَّ أشكال السلوك المُتغرِّبة هذه هي التي ستشكِّل هوية المجتمع وخِصالهُ الإجتماعية في نهاية المطاف[١٦].

---

[١٥] لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، ص٨٣. أيضاً قارنْ مع: ماركس وإنجلز، بيان الحزب الشيوعي، ص ص٢٠، ٢٣.

[16] See and compare with: Neil McInn, "Georg Luckacs", in, Donald M. Borchert (Ed.), Encyclopedia of philosophy, Vol. 5, Thomson Gale, 2nd. Ed., Detroit, 2006, p. 204.

ولعلَّ تفسير هذا الوضع من منظور لوكاش يكمنُ في أنَّ "تفكيك مسار الانتاج هو بالضرورة أيضاً تفكيكٌ للذات self،.. وأنَّ الانسان لا يظهر من الناحية الموضوعية ولا في سلوكهِ تجاه سَير العمل بصفتهِ الباعث الحقيقي لهذا السَير، بل إنَّ الإنسان مُجسَّدٌ كجزء آلي في نظامٍ آلي يَجدهُ أمامهُ [ويَعتبِرهُ] نظاماً متكاملاً ويعملُ بإستقلاليةٍ كاملة بالنسبة لهُ، وعليهِ أنْ يَخضع لِقوانينهِ". بحيث أنَّ هذا التشيؤ الناجم عن الاندماج في نظام الآلة (الماكِنة) يزداد بشكلٍ مستمر، فعلى قدر ما تنمو عَقْلَنة ومَكْنَنَة سَير العمل والإنتاج، بقدر ما يَخسرُ نشاطُ العامل طابِعَهُ الانساني، لِيغدو نشاطاً مُطابقاً لِقوانين الآلة نفسها ويَجري بصورةٍ مستقلة عن وعي الانسان نفسهِ، وهو ما ينعكس على مواقف الناس بصفةٍ عامة تجاه مشكلات بيئتهم الاجتماعية والعالم[١٧].

وما يُميِّزُ لوكاش هنا هو تركيزهُ على أنَّهُ كلّما تطورتِ القوى المُنتِجة للرأسمالية بصورةٍ أكبر تَعاظَمَ الأثر "الإستعبادي" للتقييم الرأسمالي للعمل،

---

وهنا نجد بأنَّ منظور لوكاش ينسجم بشكل كبير مع ماركس، وللمزيد من التفاصيل أنظر: كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي: عملية انتاج رأس المال، المجلد١، ترجمة د.فالح عبد الجبار، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٣، ص ص٤٥٤-٤٥٥، ٤٥٢-٤٦٤.

[١٧] لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، ص٨٤. وفي هذا السياق يقول ماركس: إنَّ تقسيم العمل بصورةٍ عمودية وأُفقية في المعامل والورش الصناعية ثم النظام الصناعي المتقدم "يَقتلِعُ قوة العمل الفردية من جذورها. إنَّ المانيفاكتورة تُحيل العامل إلى مَسخٍ كسيح، فهي تُرغِمهُ على انماء مهارةٍ وحيدة بكبتِ عالَمٍ كامل من الميول والمواهب المُنتِجة... ولا يقتصر الأمر على توزيع أعمالٍ جزئية مُتفرِّقة بين شتّى الافراد، بل يَتعداهُ إلى تجزئة الفرد نفسهِ وتحويلهِ إلى آلة أوتوماتيكية لأداء عملٍ جزئي معين... وإنَّ تقسيم العمل في المانيفاكتورة يَضعُ القُدرات الفكرية لعملية الإنتاج المادية في مواجهة العمال بوصفها ملكيةً غريبة وقوةً تُهيمن عليهم. وتبدأ عملية الانفصال هذه في التعاون البسيط، حيث يُمثِّلُ الرأسمالي وحدة وإرادة جَسَد العمل الاجتماعي إزاء العامل المفرد. ثم تتطور في المانيفاكتورة التي تُشوِّه العامل وتُحيلهُ إلى كسرة من حُطام إنسان". وللمزيد من التفاصيل أنظر: كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، المجلد١، ص ص ٤٥٤-٤٥٥. أنظر أيضاً:
Robert Audi (ed.), The Cambridge dictionary of philosophy, Cambridge University Press, 2nd. Ed., 1999, p. 521.

والمتمثل في شيوع ظاهرة التَشيؤ أول الامر وإنغراسِها بشكلٍ مُتزايدٍ في وعي الناس وذواتهم، بفعل تقسيم العمل والتخصص الوظيفي، لِكونهِ يجعلُ العاملَ "اختصاصيا محدود الأُفق ومتصلباً في مزاولَةِ عملٍ واحد" ومُتكرِّر يومياً على نحوٍ مستمر. بحيث ينعكس ذلك تدريجياً على مجمل أداء أجهزة الدولة ومؤسساتها، بالشكل الذي يُحوِّلُ موظفيها إلى "بيروقراطيين يَفتقِرونَ إلى الفكر والروح"[١٨]. أي أنَّ لوكاش يعتقد بالضرورة، استناداً إلى تفسيرهِ لنصوص ماركس وخلافاً لرؤيتهِ، بكونِ تشيؤ العامل هو مرحلة متقدمة تَسبِقُ مرحلةَ اغتراب العامل من الناحية العملية. بحيث يَتولَّدُ التشيؤ في بداية الأمر لدى البرجوازية بوصفها الطرف الحاكم للنظام الرأسمالي، ثم تتسع دائرة التشيؤ تدريجياً لِتمتَّدَ من البرجوازية إلى العمال وتترسَّخُ في أوساطهم. وبالنتيجة يغدو التشيؤ بمثابة السبب المركزي وراء نشوء الاغتراب وشيوعهِ في صفوف البروليتاريا والمجتمع الرأسمالي بعامة.

وما يدعونا لمثل هذا الرأي هو أنَّهُ، لكون قابلية "تبادل السلعة" تُعَّدُ من الوحدات الأساسية للاقتصاد الرأسمالي، جنباً إلى جنب مع أهمية "تقسيم العمل" ووحدة "الزمن"، وأنَّ تشيؤ السلع بما فيها العامل، وجعلها محَّل العناية الجوهرية أو حتى التقديس بوصفها "أشياء" في المقام الأول، هو بمثابة نتيجة حتمية من منظور ماركس أصلاً، فإنَّ ذلك سيقود أفراد المجتمع الرأسمالي إلى إهمال المحتوى "الإنساني" لأيِّ نشاطٍ بشري لِصالح قابلية قياس وتعيين القيمة التبادلية للسلع والمنتجات[١٩]. وهنا، يُشدِّدُ لوكاش على وجود ضرورة منطقية وراء هذا

[١٨] للمزيد من التفاصيل حول كيفية انتشار ظاهرة التشيؤ أنظر: لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، مصدر سابق، ص ص٨٧-٨٨، ٩٢-٩٤. أنظر ايضاً: جورج لوكاش، دراسات في الواقعية، ترجمة د.نايف بلّوز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٤، ٢٠٠٦، ص٨.

[١٩] أنظر لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، مصدر سابق، ص٨٤.

التطور الجوهري للرأسمالية حتى أوجبَتْ تقليص كافَّة العلاقات في نهاية المطاف لِتُصبِحَ متمثلةً في علاقة (السلعة–التبادل). ذلك أنَّ عملية التشيؤ قد أفضتْ في مرحلتها الختامية إلى جعل كافَّة جوانب الحياة جوانباً ملموسة مادياً ومدروسة حسابياً ومحدَّدة بعناية منطقية، مما أوجدَ بالنتيجة وضعية الاغتراب الفرداني من جانب، والاغتراب الجماعي من جانبٍ آخر. إذ أنَّ وضعية الاغتراب الفرداني هذه، باعتبارها نتيجة، ستتوسَّع بشكلٍ تدريجي لتشمل الوعي الإنساني بأسرهِ في ظل الرأسمالية، نتيجة لِتشيؤ الجوانب الأساسية في العلاقات البشرية وأكثر مجالات البحث العلمي دقَّةً وتخصصاً[٢٠].

لذا، وبُغية مُعاودة اتساقهِ مع ماركس سيَّما من زاويةِ تشديدهِ على أنَّ البروليتاريا تعيش الاضطهاد والاغتراب بوجهٍ لا يُطاق، وأنَّها خيرُ طبقةٍ مُؤهَّلة للوعي بضرورة إحداث ثورةٍ راديكالية، عَمَدَ لوكاش إلى جعل البروليتاريا هي مبدأ النَفي نفسه. إذ أنَّ البرجوازية لكونها مركز انبثاق ظاهرتَي التشيؤ والاغتراب، فهي تستعيض دوماً عن العلاقات الإنسانية بـــ"الأصنام"، أي الأشياء، التي تتخذ شكل السلع والبضائع. فتلجأ إلى تعميم وعيٍ زائف في أوساط البروليتاريا بأهمية هذه "الأشياء" وقُدسيتها، بهدف استمرارية خضوعها لهيمنة النظام الرأسمالي. لذا، لا يُمكن للبروليتاريا أنْ تبقى طبقةً إلا إذا قاومتْ ظاهرة التشيؤ كلياً، ولا تستطيع أنْ تحبسَ نفسها في إطار مصالحها الطبقية. فهي مضطرةٌ للكشف عن جوهر العلاقات الإنسانية التي تتجاوز السلع والأشياء التي تُنتِجها، كما يجب عليها النظر إلى الكلِّ الاجتماعي على أنَّهُ من "إنتاج ذاتهِ

[20] See and compare with: Michael Kelly, "Philosophies of Marxism: Lenin, Lukács, Gramsci and Althusser", in, Richard Kearney (Ed.), Routledge history of philosophy, Vol. VIII, Routledge, London, ٢005, p.192. For more details see also: McInn, "Georg Luckacs", op.cit., pp. 203-204.

وإعادة هذا الإنتاج". وعلى هذا المنوال، تغدو البروليتاريا ذات غايةٍ شاملة لدى لوكاش، بحيث تتجلّى أمامها فكرة أنَّ "صيرورة المجتمع مجتمعاً" أصبحت بيدها هذه المرة، بعد أنّ كانت الرأسمالية قد تقدَّمت بها خطواتٍ كبيرة حين وحدَّت الناس كافة بواسطة العمل ونظام الانتاج، إلا أنَّها لم تعد قادرةً على تحقيق خيرهم العام. وبالنتيجة، فإنَّ البروليتاريا إذ تنفي ذاتها من زاوية كونها طبقة، فإنَّها بواسطة ثورتها الراديكالية تنفي سائر الطبقات بما يُحقق خيرها العام وبناء المجتمع المنشود[٢١]، في ضوء كلِّ ما تقدَّم ذِكرهُ، يُمكنُ للباحث القول بأنَّ ظاهرة التشيؤ لدى لوكاش، تتبلورُ عبر المرور بأربعِ مراحل متداخلة في آنٍ واحد:

أ- ففي بادئ الامر يتولَّدُ التشيؤ لدى البرجوازية نتيجةً لِقناعتها بـــ"أهمية السلع"، وقياسها الحسابي لمدى ربحها ونفعها المادي، وأهمية انتاجها بشكلٍ واسع النطاق بحيث يتجاوز الورش والمعامل الصغيرة، ثم تبادل السلع، أي الإتجار البرجوازي بالمُنتجات المُصنَّعة وتسويقها ضمن سوقٍ موحَّدة تخلو من العقبات الإدارية والسياسية، بهدف تحقيق نفعها الخاص، مما يقود تدريجياً إلى التوسيع من مَكْنَنَةِ مختلف عمليات إنتاج السلع وتُحولها إلى نظامٍ اقتصادي شامل.

ب- وفي المرحلة الثانية، التي تتداخل والمرحلة الاولى، يَخضَعُ العامل لهيمنة الآلة ونظام عملها، بحيث يتم توزيع العمال على خطوط الانتاج وفقاً إلى تخصص عمل الآلة نفسها دون حاجةٍ كبيرة إلى القدرات المَهارية للعامل نفسهِ. أي يجري تفكيك العمّال بصورةٍ آلية، بالشكل الذي يقود إلى تفكيك ذواتهم Selfs وتشظية بعضها عن بعض بصورةٍ متواصلة.

[٢١] للمزيد من التفاصيل أنظر وقارن مع: هنري إرفون، جورج لوكاتش أو الجبهة الشعبية في الأدب، ترجمة د.عادل العوّا، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٧٠، ص ص ٦٤-٦٥.

ج- نتيجةً لعدم قدرة العامل على التخلص من ظاهرة تقسيم العمل وخطوط الانتاج، فإنَّ شخصية العامل تُصبح مُتمثِّلَةً في ذلك المُشاهِد العَاجِز أمام كل ما يَحدثُ حول وجودهِ الخاص، كجزءٍ مَعزولٍ ومُتحِّد بنظامٍ غريب عنه. كما أنَّ هذا التفكيك الآلي لِسَير نظام الانتاج، يَقطعُ أيضاً الروابط التي تجمعُ العاملَ بأقرانهِ، لكونهِ يجعل منهم ذراتٍ مُنعزلة ومجردة لا يجمعها نظام عملها بشكلٍ مباشر وعضوي. وفي هذه المرحلة تحديداً تتمخَّضُ ظاهرة الاغتراب[٢٢]. حيث يغدو الاغتراب متمثلاً في أنَّ ما يَبتكِرهُ الانسان ويُنتِجهُ بيدَيهِ وعقلهِ لن يلبثَ أنْ يتحوَّلَ على الضدِّ منهُ، فيصبحُ له السيطرة الكاملة على حياة الانسان وسلوكهِ. فالابتكارات والمُنتَجات التي يُنتِجها العامل بواسطة الآلة، تزيدُ من عبوديتهِ بدلاً من توسيع قُدراتهِ، أي تسلبهُ قدراتهُ الذاتية على اتخاذ القرارات وتوجيه حياتهِ، تلك القدرات التي يتميَّزُ بها الانسان عن الكائنات الأخرى[٢٣].

د-وفي نهاية المطاف تتولَّدُ ظاهرة التشيؤ الكامل، بحيث أنَّ العامل في هذه المرحلة لا يبدو من الناحية الموضوعية، ولا الذاتية أي في سلوكه تجاه سَير العمل، كالحامل الحقيقي لهذا السَير، والباعث الجوهري لنظام الانتاج، بل يغدو كأنَّهُ مجرد جزءٍ مُتمِّم وآلي من نظام العمل والإنتاج. فيؤمنُ بكون الأخير نظامٌ كامل بذاتهِ ويعمل باستقلالية تامّة بالنسبة لهُ، كما يتوجب على

---

[٢٢] للمزيد من التفاصيل أنظر وقارن مع: لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، مصدر سابق، ص ص ٨٣-٨٦. أنظر أيضاً:

Will Kymlicka, Contemporary political philosophy: an introduction, 2nd. Ed., Oxford University Press Inc., New York, 2002, pp. 199-201.

[٢٣] أنظر وقارن مع: د. أحمد أبو زيد، الاغتراب، مجلة عالم الفكر، مصدر سابق، ص ص ٦-٧. والى هذا المعنى ذَهَبَ أيضاً "بيرغر وبولبيرغ" بشأن طبيعة العلاقة بين ظاهرتَي التشيؤ والاغتراب لدى ماركس، أنظر:
Berger & Pullberg, Reification, pp. 199-201.

العامل بالضرورة أنْ يخضع لقوانينهِ. لذا، يخسرُ العامل طبيعتهُ الإنسانية، أي يخسرُ قدرتهُ النقدية بالمعنى الفرانكفورتي، فلا يتجاوز نشاطهُ "الإنساني" دائرةَ التأمل في كمال هذا النظام، نظراً لإندماجهِ التام فيهِ. فيظهر النظام الرأسمالي للعيان كنظامٍ متكامل ومستقل بذاتهِ، يُهيمنُ على عقول الناس وأفكارهم بشكلٍ عام وحتى مواقفهم تجاه بيئتهم المحيطة بهم. فتغدو ظواهر الاستغلال الاقتصادي، والهيمنة السياسية، وربَّما حتى بروز الفاشية والاستعمار الخارجي من قبيل طبائع الأمور ليس إلا، رغم أنَّ المعنى الأخير لم يقلْ به لوكاش وماركس صراحةً.

يتبيَّنُ مما سبق ذكرهُ أنَّ منظور لوكاش إلى التشيؤ يختلف في جوانب عدة عن ماركس، كما يلتقيان في جوانبٍ أُخرى، ومنها:

أ. إنَّ البعد الرومانسي عند لوكاش الشاب وتأثُره بالتفسير الفيبري لِنشوء الرأسمالية قُبيل العام ١٩١٨[٢٤]، ربَّما أسهم لاحقاً في صياغة تصورهِ الخاص بشأن ظاهرة التشيؤ خلافاً لماكس فيبر نفسهِ. ذلك أنَّ الأخير يعتقد بكون معالم النهوض الفكري تبدأ بالتبلور التدريجي بفعل ظاهرة "تشيؤ العالم disenchantment of the world"، وهي تعني لديهِ عملية تغيير المجتمع لتصوراتهِ الدينية واعتمادهِ لمعتقداتٍ علمية ووسائل تقنية. بحيث يغدو "تشيؤ العالم" نتيجةً طبيعية لإكتشاف الانسان بأنَّ العالم يتحرك وفقاً لقوانين قابلة

[٢٤] انتمى لوكاش في شبابه وقبيل العام ١٩١٨ إلى الحركة الرومانسية المناهِضة للرأسمالية، وهي تَشترِكُ مع الإطار العام للحركة الرومانسية في عدة قواسم مشتركة، ومنها: فكرتها الرئيسة بشأن ظاهرة التمزُّق الاجتماعي وكونها ناجمة عن أنماط الحياة الصناعية، كذلك موضوع "الوحدة العضوية" التي عاشتها المجتمعات الأوروبية قبل الثورة الصناعية. ومن ثمَّ، فإنَّ اكتشاف الشروط المُؤدية إلى تجاوز ظاهرة التمزُّق هذه يقتضي إعادة بناء "الوحدة العضوية" للمجتمع في المستقبل. وللمزيد من التفاصيل حول طبيعة أعمال لوكاش الشاب قبل العام ١٩١٨، أنظر: أكسل هونيث، الاجتماعي وعالمهُ الممزَّق: مقالات فلسفية اجتماعية، ترجمة ياسر الصاروط، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٩، ص ص ١٢-١٣، ١٦-١٧، ١٩.

للكشف والإدراك العقلي لا وفق قوى غامضة مُستعصية على الفهم والتفسير[٢٥]. أما لوكاش فينظر إلى التشيؤ من زاويةٍ كونهِ نتيجة غير طبيعية أصلاً، بل هي ذاتية وموضوعية في آن واحد. فلوكاش لا يقول بأولوية الوعي والقيم الثقافية على العامل الاقتصادي (التشيؤ الفيبري)، كما لا يقول بأولوية العامل الاقتصادي (الموضوع) على الوعي والشعور والثقافة وأنَّ الأخيرة مجرد انعكاس لقوى الاقتصاد الرأسمالي (التشيؤ الماركسي)، بل ينتهج لوكاش نهجاً وسطاً بينهما، فهو يُشدِّدُ على كون التغيير الاجتماعي والتشيؤ بصفةٍ عامة يتمخَّض عن التفاعل المتبادل بين الوعي والموضوع بصورةٍ مستمرة.

**ب.** إنَّ لوكاش يُلقي الضوء على أهمية البعد الذاتي وتوظيفهِ في سياق تفسيرهِ الماركسي لِسَيرورة الرأسمالية، ذلك أنَّ ماركس اقتصرَ على تفسيرها من حيث الحركة الموضوعية التي تُميّز السوق والنظام الرأسمالي ككل، أي من جهةِ تبيان دور العامل الاقتصادي في تقسيم العمل وتراكم رأس المال والتطور التكنولوجي. أما لوكاش فيُشدِّد على كلِّ أبعاد المجتمع "الموضوعية" منها و"الذاتية". وهذا البعد الزائد، أي الذاتي، هو بُعدٌ غير ماركسي بالضرورة.

---

[٢٥] اقتبسَ فيبر هذا المصطلحَ من ماكس شيلر، بحيث يشتمل استخدامهُ اللغوي على عدة معاني مثل: "نزع السحر والخرافة" من العالم الموضوعي، كذلك فقدان "الحماس وخيبة الأمل". أما فيبر فيستخدمهُ بمعنى التخلي عن رؤية العالم على أنَّهُ خاضعٌ لِقوى غَيبية، وانتهاج تصور آخر دُنيوي يرى العالم من زاوية أنَّهُ خاضعٌ لقوانين ميكانيكية. فتغدو الموجودات من منظور المرء "أشياءَ خالية من الإرادة والغاية والحياة". مما يُمهِّدُ السبيل لتفكيك البيئة الاجتماعية التقليدية إلى دوائر مُتمايزة ومستقلة ضمن مشروع الحداثة التنويري: علمية وإدارية وقانونية وأخلاقية، بحيث شَكَّلَ النظام الرأسمالي والدولة القومية الدائرَتَين الأكثر تطوراً سيَّما من ناحية اعتمادهما التخصص الوظيفي وتوظيف العلوم العقلية في الإدارة والإنتاج. للمزيد من التفاصيل أنظر: لؤي صافي، نموذج التحديث الغربي: الخصوصية التاريخية وإشكالية التعميم، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد١٨٦، آب ١٩٩٤، ص ص ٤٣-٤٥. وقارن ذلك مع: لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، ص ص ٨٣، ٨٥-٨٦، ٨٩-٩٠.

فالتشيؤ لدى لوكاش لم يَعُدْ مُقتصِراً على كونه سيرورة مـــن "إسباغ الشيئية" على العامل ومُجمل النشاط الانساني، أو سعي العامل للسيطرة عـــلى "الأشياء"، بل هو أيضاً سيرورة "تَبلُغُ صميمَ الوعي ذاته، حتى أنَّنا نتعلم في النهاية أنْ نُشيء أنفسنا"[٢٦]، أي بصورةٍ ذاتية ودون وعيٍّ مِنّا.

**ج.** إنَّ التشيؤ عند ماركس يَنتُجُ بتأثير اغتراب البروليتاريا في المقام الأول بالشكل الذي يُفضي تدريجياً إلى بروز ظاهرة التشيؤ المجتمعي على صعيدَين: أولهما الانعزال عن مُجمل عملية الإنتاج والانكفاء على الذات، بفعل إنكفاء كل عامل على أداء جزءٍ معيَّن من العمل نتيجةً لتقسيم العمل، كما أنَّ العمل بدورهِ لا يحتاج إلى قدرٍ كبير من القدرات الإبداعية والمَهارية. مما يقود إلى تشظي العمال بالضرورة وانعزال بعضهم عن بعض. وعلى العكس من ذلك، فإنَّ الإغتراب الفردي منه والجماعي عند لوكاش ليس إلا نِتاجاً لِتَشيؤ البروليتاريا وعجزها أمام هيمنة قوى الاقتصاد والمجتمع، كما أنَّهُ نتيجة للجهل بالقوانين التي تُسيِّرُ هذه القوى.

**د.** من جانبٍ آخر، يتفقُ لوكاش مع ماركس على كون التشيؤ والاغتراب إنَّما هما ظاهرةٌ مؤقتة بغض النظر عن كون أيٍّ منهما هو السبب وأيٍّ منهما هو النتيجة. وفي كلا الحالَين يُمكن تضييق دائرتَي التشيؤ والاغتراب حين يتم الإلمام بمعرفة السُنن والأساليب والوسائل التي تَتحكَّمُ في قوى الاقتصاد والمجتمع.

---

[٢٦] للمزيد من التفاصيل أنظر لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، ص ص ٨٦-٨٧، ٨٩-٩٠. أنظر أيضاً د.كمال بو منير، من غيورغ لوكاش إلى أكسل هونيث: نحو إعادة بناء مفهوم التشيؤ، مجلة هِرمِس، المجلد٢، العدد٤، مركز جامعة القاهرة للغات والترجمة، القاهرة، أكتوبر ٢٠١٣، ص ص٨١، ٨٣.

ه. كذلك يلتقي ماركس ولوكاش على أنَّ التشيؤ والاندماج في الأشياء المُنتَجة، أي شعور العامل بأنَّه أصبحَ مجرد شيء أو آلة، يزدادُ رسوخاً بفعلِ دور التكنولوجيا في التصنيع وعملية الاندماج. بحيث يشعر العامل بشكلٍ خاص بالعجزِ في حالة غياب التكنولوجيا اللازمة لأداء عملهِ، لكونهِ قد أمسى أو يكاد مُفتقِراً إلى المهارات والقدرة الإبداعية التي كان يتمتَّع بها في المراحل السابقة على الرأسمالية الصناعية. وفي الوقت عينهِ، يتضحُ حجم اندماج وتشيؤ العامل في النظام الرأسمالي من حيث أنَّ العامل باعتبارهِ قوة عمل ومالك سلعة العمل، لا يستطيع بيعَ هذه السلعة إلا للرأسمالي في ظل هذا النظام. فالرأسمالي هو منْ يحتكر السوق ووسائل الإنتاج، ومن ثمَّ يُهيمنُ على كامل قوى الإنتاج بما فيها قوة العمل، ذلك أنَّه وحدهُ يحتكر القوة الاقتصادية اللازمة لِشراء قوة العمل أو السلعة التي يملكها العامل، وبالنتيجة لا يستطيع الأخير بيعَ قوة عملهِ بوصفها "سلعة" إلا للرأسمالي.

**ثانياً- علاقة الوعي الزائف بظاهرة التشيؤ لدى ماركس ولوكاش**

ضمن إطار النظرية الماركسية، يُعد الوعي الطبقي الحقيقي أحد الشكلَين الرئيسَين للوعي الاجتماعي جنباً إلى جنب مع الوعي الزائف. فالأول يُمثل سبيلَ البروليتاريا وحافزها للتخلص من ظاهرة التشيؤ أما الثاني فهو سبيل البرجوازية لإستمرارية هيمنتها على البروليتاريا وغيرها، عبر توسيعها لدائرة التشيؤ وآثارها الفكرية بخاصة. مما يستدعي تبيان كيفية تبلورهما وطبيعة العلاقة القائمة بينهما بالشكل الآتي ذِكرهُ:

**1 - في تبلور الوعي الطبقي الحقيقي والوعي الزائف**

إنَّ رؤية ماركس وتصنيفَهُ لأشكال الوعي الطبقي تَستنِدُ إلى فكرتهِ القائلة بأنَّ الطبقة الاجتماعية تتمخض في الأصل "عندما تكونُ واعيةً لكونها

طبقة اجتماعية". فهو يُميِّزُ بين نوعَين من الطبقات وفقاً لتبلور وعيها، هما: (الطبقة بحد ذاتها) و(الطبقة من أجل ذاتها). بحيث يُميِّزُ ما بين مجموعة الشروط الموضوعية التي تُعرِّف الطبقة وبين الوعي الذاتي الذي تحوزهُ الطبقة نفسها. فكلُّ طبقة اجتماعية تُطوِّرُ وعيها الخاص، فالعُمّال مثلاً، يتبلور لديهم فهماً وتفسيراً مشتركاً لوضعهم الطبقي المُستغَّل اقتصادياً واجتماعياً من قبل البرجوازية. إلا أنَّ ذلك يُرافِقهُ أيضاً ما تحوزهُ البرجوازية بوصفها الطبقة المُهيمنة، من قدرةٍ مادية وفكرية على توليد الاعتقاد لدى العمّال أنفسهم بصواب الاجراءات والتدابير القائمة (الاغتراب) وأنَّها تخدم مصلحة جميع أطراف العملية الإنتاجية. إذ يقول ماركس: "إنَّ الطبقة السائدة تتمثل في كل عصر بالأفكار الحاكمة"؛ فالطبقة التي تمتلكُ القوة المادية الحاكمة للمجتمع، هي في الوقت نفسهِ تُجسِّدُ القوة الفكرية الحاكمة للمجتمع نفسهِ. وبالنتيجة، قد تتمسّكُ الطبقة الخاضعة بآراءٍ تتعارضُ مع مصالحها الحقيقة الخاصة، ليتولَّد في أوساطها ما أطلقَ عليه لوكاش لاحقاً تسمية "الوعي الزائف" بظروفها ووضعها الطبقي الحقيقي[٢٧].

وفي هذا الصدد، يقول ماركس في كتابهِ (بؤس الفلسفة) عن العمّال ووضعهم الطبقي: "لقد حولَّت الظروف الاقتصادية جماهيرَ البلاد إلى عمّال، وخَلَقتْ سيطرةُ رأس المال لهذه الجماهير وضعاً مشتركاً ومصالحَ مشتركة. ومن هنا، فإنَّ هذه الجماهير هي بالفعل طبقة، في مواجهة رأس المال، ولكنها ليست بعد طبقةً لِذاتها. وفي [هذا] الصراع... تتوحَّد هذه الجماهير وتتشكَّل

[٢٧] أنظر روزماري كرومبتون، الطبقات والتراصف الطبقي، ترجمة عثمان حدّاد وغسان رملاوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٦، ص ص ٨٢، ٨٦. أنظر أيضاً: لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، مصدر سابق، ص ص ١٤-١٥.

كطبقة لِذاتها، وتغدو المصالح الي تُدافع عنها مصالح طبقية، ولكنَّ صراعَ طبقةٍ ضد طبقة هو صراعٌ سياسي"[٢٨]. أي أنَّ أفراد المجتمع يدخلون بعامة في علاقات انتاجٍ محددة لا يمكنهم التخلي عنها لِكونها مستقلة عن اراداتهم، وهي علاقاتٌ إنتاجية تتوافق مع مرحلةٍ محددة من تطور قواهم الإنتاجية. كما أنَّ إجمالي تلك العلاقات يُشكِّلُ البُنيةَ الاقتصادية للمجتمع، والأساس الحقيقي الذي يُشيَّدُ عليهِ البناء الفوقي القانوني والسياسي، الذي تتطابق معهُ أشكال محددة من الوعي الاجتماعي.

وبغية تفسير ذلك، يقول ماركس في موضعٍ آخر: "لا بدَّ من الاعتراف بأنَّ العامل يخرج من عملية الإنتاج وقد اختلفَ تماماً عمّا كان عليهِ [قُبيلَ دخولها]. ففي السوق، كان يقف كمالكٍ لسلعة، وهي (قوة العمل)، وجهاً لوجه إزاء بقية مالكي السلع، أي مالك سلعة إزاء مالك سلعة. والعقد الذي باعَ بموجبهِ قوةَ عملهِ للرأسمالي، بَرْهَنَ... على أنَّهُ حرٌّ التصرف بنفسهِ. وما أنْ تمَّ إبرام الصفقة حتى اتضح أنَّهُ ليس امرءاً حراً، فالوقت الذي يكون فيهِ حراً لبيع قوة عملهِ هو الوقت الذي يكونُ فيهِ مُرغماً على بيعها، وإنَّ مصاص الدماء [البرجوازي] في الواقع، لن يدعهُ يُفلتُ ما دامت فيهِ عضلة أو عصب أو قطرة دم صالحة للإمتصاص"[٢٩]. أي أنَّهُ ليس وعي أبناء الطبقة الواحدة هو الذي يُحدِّدُ كيانهم الطبقي، بل إنَّ "وجودهم الاجتماعي هو الذي يُحدد وعيهم". ومن ثمَّ، فإنَّ

[٢٨] كارل ماركس، بؤس الفلسفة: ردٌ على فلسفة البؤس لبوردون، ترجمة محمد مستجير مصطفى، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٤، ٢٠١٠، ص٢٥٢.

[٢٩] ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، مصدر سابق، ص٣٨٧.

الأساس الاقتصادي والوجود المادي الذي يتمخض عنه وجودهم الاجتماعي هو ما يُحدد الوعي الطبقي بخاصة والوعي الإنساني بعامة وليس العكس[٣٠].

وحين مقارنة هذا المنظور مع لوكاش، سنجدُ الأخير يعتقد بأنَّ الوعي الطبقي تجسيدٌ للأفكار والعواطف ذات الصلة بوضعَ الطبقة الاجتماعية وظروفَها الطبقية في سياق تطور عملية الانتاج. وهنا، يتعامل لوكاش شأنهُ شأنَ ماركس، مع الوعي الطبقي في سياقهِ الاجتماعي الكلي الذي يُطلِقُ عليهِ لوكاش تسميةَ "الإمكانية الموضوعية". وحين النظر إلى الوعي الطبقي من هذه الزاوية، فإنَّنا "نُعيدُ الوعي إلى شمولية المجتمع ونَكتشف الافكار والعواطف التي يمكن أنْ تتكون لدى البشر في موقفٍ اجتماعي مُحدَّد، لو أنَّهم كانوا قادرين على إدراك ذلك الموقف والمصالح الناتجة عنه إدراكاً كاملاً، ناهيك عن فهم طبيعة البُنية الاجتماعية المنسجمة مع هذه المصالح ككل. وهكذا نكتشف الأفكار والعواطف المتلائمة مع موقفهم الموضوعي. وليس هناك من مجتمعٍ يكونُ فيه عدد هذه المواقف لا نهائياً"[٣١]. فالوعي الطبقي ليس حاصلَ جَمع ما يُفكِّرُ به ويَحِسّهُ الأفراد الذين يُكوِّنونَ الطبقة فرداً فرداً. فالتأثير الفاصل تاريخاً للطبقة ككل يُحدِّدهُ الوعي الطبقي في نهاية المطاف وليس التفكير والعواطف الفردية[٣٢].

---

[٣٠] للمزيد من التفاصيل أنظر: روزماري كرومبتون، الطبقات والتراصف الطبقي، مصدر سابق، ص ص ٨٢-٨٣.

[٣١] جورج لوكاش، "الوعي الطبقي كوعي مُقَرٍ به"، في، ميشيل فاديه، الإيديولوجية: وثائق من الأُصول الفلسفية، ترجمة د.أمينة رشيد وسيد البحراوي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩، ص٥٨.

[٣٢] أنظر المصدر نفسه، ص ص ٥٨-٥٩. وهنا ينبغي إدراك فكرة أنَّ الاشتراكيين بعامة رغم اختلافاتهم بشأن مفهوم "الجماعة" إلا أنَّهم يتقاسمون معنى مشتركاً، وهو يتضمن أكثر مما يُشيرُ إليهِ هذا التعبير عادةً. فهو لا يُحيلُ إلى قناعاتٍ قيمية مشتركة ما بين أعضاء الجماعة الواحدة، كما لا تتضمن درجة معينة من التماهي مع أهداف الجماعة فقط، بل إنَّهُ يُشيرُ قبل أي شيء آخر إلى الالتزام المتبادل بين أعضائها من أجل بعضهم بعضاً، والمشاركة مع كلٍ "آخر"، استناداً إلى فكرة أنَّ الأهداف المشتركة لا تتراكم تلقائياً وبصورةٍ عشوائية، بل يجب

استناداً إلى ذلك، يُفرِّقُ لوكاش صراحةً بين شكلَين من الوعي الطبقي في ضوء مخرجات ظاهرة التشيؤ:

أ- **الوعي الحقيقي:** ويَعُدّهُ بمثابة "القوة" التي تتمكنُ الطبقة بواسطتها من السيطرة على مقدراتها ورغباتها ذاتياً، ناهيك عن "السيطرة على حركة الأشياء والموجودات التي تَفتقِرُ بذاتها إلى أيِّ معنى وغاية". هذا الوعي ناجمٌ عن الظروف والعلاقات الاجتماعية بصورةٍ كلية، فيستطيع الناس أنْ يُكوِّنوهُ استناداً إلى طبيعة وظروف وجودهم، كما يكون بادياً في تفسيراتهم للظواهر السياسية والاجتماعية. وبالنتيجة فإنَّ هذا النوع من الوعي الطبقي، هو ما يُكسِبُ الطبقةَ الاجتماعية بعامة والفئات المثقفة منها بخاصة مناعةً فكريةً تجعلها في نَجْوَةٍ من التشيؤ والاغتراب معاً.

ب- **الوعي الزائف:** ويعني بهِ الوعي المُتَشيء الذي يُمارِسُ العاملُ بموجبهِ دورَ المُشاهِدِ الخَاضِع تماماً لِحركة الأشياء والموجودات التي تكون بدورها خاضعةً لِقوانينٍ لا يمكن للعامل التدخل فيها بأيِّ حال. أي أنَّهُ يظهر للعامل من الناحية الموضوعية وكأنَّهُ بذاتهِ مجرد أمر ثانوي بالنسبة إلى جوهر التطور الاجتماعي، مما يجعلهُ لا يُعرِّفُ نفسهِ ولا يُعبِّرُ عن نفسهِ بشكلٍ ينسجم مع حقيقة ظروفهِ الاقتصادية والاجتماعية. ومن ثمَّ، فإنَّ الوعي الزائف لدى العامل ومن الناحيتَين الذاتية والموضوعية يجعلهُ "لا يَصل إلى الأهداف التي حدَّدها لِنفسهِ، [فيبدو] أنَّهُ يَرمي إلى أهدافٍ موضوعية للتطور

---

أنْ تتشابك ذاتياً وبصورةٍ متبادلة، بحيث "يكون المرء فاعلاً لا مع "آخر"، بل من أجل الآخر على الصعيد الاجتماعي ككل". وهو ما يجعل مفهوم "الجماعة" أقرب ما يكون إلى "العُصبة الاجتماعية". إذ أنَّ الذوات فيها حين تتقاسم التعاطف بشكلٍ متبادل، فإنهم يُعامِلونَ أنفسهم أساساً باعتبارهم متساوين، وسيمتنعون بعد ذلك وفيما بينهم عن ممارسة أيِّ استغلال أو استعمال لِبعضهم بعضاً كأدوات. للمزيد من التفاصيل أنظر: أكسل هونيث، فكرة الاشتراكية، مصدر سابق، ص ص ٤٦-٤٨، ٥٥-٥٦.

الاجتماعي ثم يَصل إليها، غير أنَّهُ لم يَعْرِفها ولا يُريدها". هذا المنظور إلى الوعي الزائف لا يَفسح المجال بأنْ تتم معالجة ظاهرة الوعي الطبقي بعامة، عبر الاكتفاء بوصفِ ما فَكَّرَ به الناس وشَعروا به وأرادوه فعلياً في ظلِّ ظروفٍ تاريخية وأوضاعٍ طبقية بعينها وتحت تأثير العامل الاقتصادي–الصناعي. لِكون الاكتفاء بذلك سيجعل موضوع المعالجة نفسهُ دائراً في فَلَكِ الوعي الزائف عند لوكاش، لذا ينبغي لديهِ معالجة الوعي الطبقي من زاوية مختلفة عن ماركس، أي بوصفهِ الفاعل الجوهري وراء نشوء كيان الطبقة الاجتماعية ككل، وكذلك تفسير لجوئها إلى العنف السياسي وتبلورِ نزعةَ السيطرة على السلطة السياسية والأهداف المَرجوَّة من وراء ذلك[٣٣].

وهذا يعني بأنَّ لوكاش قد تأمل كثيراً في فكرة ماركس القائلة: إنَّ نمط الإنتاج الرأسمالي هو الذي يُعيِّنُ تقدم الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية. فليس شعورُ الانسان ووعيهُ هو ما يُحدِّدُ وجودَهُ الاجتماعي، بل إنَّ وجودَهُ الاجتماعي هو الذي يُحدِّدُ شعورهُ ووعيهُ. إذ أنَّ الذات والروح والشعور عند ماركس مجرد إنعكاس للعالم المادي سيَّما في ظلِّ النظام الرأسمالي. هذه النتيجة شكَّلتْ موضع اختلاف جوهري ما بينه وبين لوكاش، وبصفةٍ خاصة من حيث أهمية الوعي الطبقي وفاعليةِ دورهِ في الانفلات من هيمنة الرأسمالية ونزعتها المادية. فلوكاش ينطلق أصلاً من فكرة كون "التاريخ حصيلة تفاعل بين الذات والموضوع"، إذ يتمخّض التغيير في مسار التاريخ بفعل وعي المرء بالقوانين التي تُهيمنُ على حياتهِ وعالمهِ المادي في المقام الأول. فهو يرى ثمة علاقة جدلية بين الذات والموضوع، بحيث أنَّ الذات تُحدِّدُ قرارها وفقاً للموضوع،

[٣٣] أنظر لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، مصدر سابق، ص٧٥. وقارنْ ايضاً مع: لوكاش، الوعي الطبقي كوعي مُقَرٌ به، مصدر سابق، ص٥٨.

ولكن الموضوع من جهتهِ تُحدِّدهُ الذات. وحين يَضَعُ لوكاش "الذاتَ" حيال الموضوع، والشعور" بإزاء الوجود المادي، فإنَّهُ يسعى للحؤول دون انزلاق النظرية الماركسية إلى حتميةٍ اقتصادية (جمودٍ عقائدي) لا تأخذُ بالحُسبان حرية الاختيار المتاحة للبشر، عبر محاولتهِ الكشف عن قدرة الذات على الوعي الحقيقي بالوضع التاريخي الذي تعيش في إطارهِ وأهمية دور الذات الواعية في إحداث التغيير المُرتجى[٣٤].

وفي هذا السياق، يحاول لوكاش تسليط الضوء على أهمية دور الوعي خلافاً لرؤية ماركس والماركسية اللينينية بعامة. وهو إذ يَضَعُ الشيءَ ونقيضهُ في حالةٍ من التأثير والتأثُّرِ المتواصل بينهما، فإنَّهُ يُريدُ تمكينَ الذات (أي البروليتاريا) من تجاوز وعيها الزائف والناجم أصلاً عن ظاهرة التشيؤ، بواسطة الوعي الحقيقي بوضعها التاريخي وطبيعة ظروفها المَعيشة بالشكل الذي يُمكِّنها من إحداث التغيير. فالذات لدى لوكاش ليستْ مُلْحَقةً بالقوى المادية التي تُحرِّكُ التاريخ، بل إنَّ الذات بعد ادراكها لوعيها الحقيقي ستغدو قوةً أُخرى فاعلة إلى جنب القوة الاقتصادية، وتعملان معاً على تغيير مسار التاريخ. هذا الوعي المُكتَسب إنَّما يتجسَّدُ فعاليتهُ في وعي طبقة البروليتاريا حصراً، أي وعيها بضرورة الرفض التام للتشيؤ والاغتراب معاً. فالبروليتاريا إذ تُحرِّرُ نفسها منهما، فإنَّها ستكون قد حرَّرت شتّى طبقات المجتمع من هيمنة النظام الرأسمالي[٣٥]. وهو ما يكشف من جانبٍ آخر أنَّ لوكاش يلتقي هنا مع ماركس

[٣٤]للمزيد من التفاصيل أنظر هنري إرفون، جورج لوكاتش أو الجبهة الشعبية في الأدب، مصدر سابق، ص ص٥٨، ٦٠-٦٢.

[٣٥]أنظر وقارن مع: جورج لِختهايم، "جورج لوكاش"، في، أندرو سنكلير وآخرون، ثلاثة وجوه للثورة: غيفارا ولوكاش وأورويل، ترجمة ماهر الكيّالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص ص ٢٤٤-٢٤٥، ٢٥٧-٢٥٨.

ويختلف معهُ في آنٍ واحد. فهما يتلقيان من حيث كون البروليتاريا وحدها تمتلك الوعي الحقيقي والقدرة التغييرية، إلا أنَّهما يختلفان من زاوية تأكيد لوكاش على إمكانية اللجوء الى السبل السلمية والعنف معاً بهدف إحداث التغيير المنشود، أما ماركس فيُشدد على العنف الثوري بواسطة البروليتاريا فقط.

**2 – في طبيعة العلاقة بين الوعي الطبقي والهيمنة السياسية**

يُشيرُ لوكاش إلى وجود صلةٍ وثيقة ما بين تبلور الوعي الطبقي وبين السعي إلى السيطرة السياسية، أي الهيمنة على البُنية الفوقية في ضوء "الوعي الطبقي الحقيقي" باعتبارهِ جزءاً لا ينفصم عن البُنية التحتية. وهو في هذا الشأن يختلف مع ماركس مرةً أخرى، حيث أنَّ نُزوع الطبقة الاجتماعية إلى السيطرة السياسية لدى لوكاش، يعني أنَّ من الممكن تنظيم المجتمع بأكملهِ إنطلاقاً من الوعي الطبقي جنباً إلى جنب الملكية والمصالح الطبقية. إلا أنَّ هذه العلاقة بين الوعي الطبقي ونزعة السيطرة السياسية لا يمكن أنْ تُلغيَ دور العنف السياسي في مسار التاريخ، ناهيك عن اسهامهِ في ترسيخ الوعي الطبقي نفسهِ. فهذه العلاقة عند لوكاش لا تضمن الانتصار الآلي للمصالح الطبقية القائمة على أساس الوعي الطبقي. بل على العكس، يُشدِّدُ لوكاش **أولاً** على الظروف التاريخية التي تَخلق الوعي الحقيقي والمصالح الطبقية بواسطة العنف السياسي بخاصة. كما يُؤكِّدُ **ثانياً** على دور الوعي الطبقي في توليد العنف وصراع الطبقات الاجتماعية من أجل البقاء في دائرة الحياة، باعتبار أنَّ الوعي الطبقي صاحب الدور الحاسم لِنتيجة هذا الصراع[٣٦]. فعلى سبيل المثال، يرى لوكاش: "إنَّ القول بكون التمرُّدات الفلاحية بصورةٍ عامة لم تُهزم إلا بالقوة الوحشية،

[٣٦] أنظر لوكاش، دور الإيدولوجية الحتمي في العنف، في، ميشيل فاديه، الإيديولوجية، مصدر سابق، ص٩٤. أنظر أيضاً د.كمال بو منير، من غيورغ لوكاش إلى أكسل هونيث، مصدر سابق، ص٨٣.

وأنَّ هزائم الفلاحين أمام طبقة الإقطاع لم تكنْ مُترسِّخةً في الوعي الطبقي للفلاحين من حيث طبيعتها الاقتصادية والاجتماعية، هو قولٌ يَغفَلُ رؤيةَ أنَّ السبب الأخير [أي الحاسم] لِتفوُّق الأُمراء وضعف الفلاحين ومن ثمَّ إمكانية ممارسة العنف من جانب الأُمراء، ينبغي أنْ يُبحَثَ عنه تحديداً في قضايا الوعي الطبقي هذه"[٣٧].

تأسيساً على ذلك، فإنَّ الطبقة المؤهلّة للسيطرة السياسية ينبغي أنْ لا تُوضع مع الطبقات الأُخرى على صعيد واحد وفي ما يتعلق بِبُنيتها الطبقية ووعيها الطبقي. فالشرط الجوهري من منظور لوكاش أنْ تكون الطبقة المؤهلّةُ هذه "مُدرِكةً" كلَّ الادراك للأعمال التي يجب أنْ تُنفِّذها فعلياً بُغية تحقيق السيطرة ومن ثمَّ تنظيم وضعها الطبقي السائد. إذن، وفقاً لِتعبير لوكاش، (إنَّ المهم هو القضية الآتية: إلى أيَّة نقطة تقوم الطبقة "بوعي"، وإلى حدِّ أيَّةِ نقطة "بدون وعي"، وحتى أيَّةِ نقطة بوعي "صحيح"، وحتى أيَّةِ نقطة بوعي "زائف" تقوم بالأعمال التي يَفرِضُها التاريخ عليها؟ فهذه التمييزات ليست مَحض أكاديمية. ذلك أنَّهُ عبر الاستقلال التام عن القضايا الثقافية، حيث التنافرات الناجمة عن هذه القضايا هي ذات أهميةٌ فاصلة، فإنَّ مَصيرَ طبقةٍ ما يتعلق بأهليتها وفي كل قراراتها العملية، أنْ تَرى بوضوح وأنْ تَحلَّ المشاكل التي يَفرِضُها عليها

[٣٧]جورج لوكاش، دور الإيدولوجية الحتمي في العنف، مصدر سابق، ص٩٥. إنَّ فكرة لوكاش هذه تكاد تلتقي مع ماكس فيبر، من حيث تشديد الأخير على أنَّ مجرد التمييز بين الطبقات على أساس الملكية لن يغدو تمييزاً حقيقياً، أي لا يتمخض عنه بالضرورة الصراع الطبقي والثورات أو الاحتجاجات الطبقية. لأن "الطبقة" لا تملك بذاتها الوعي الاجتماعي بوحدتها ومصالحها الطبقية، بخلاف الحال مع "الفئات الاجتماعية" و"الأحزاب السياسية". للمزيد من التفاصيل أنظر: لوران فلوري، ماكس فيبر، ترجمة د. محمد علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ٢٠٠٨، ص ص ١٨-١٩، ٢٦-٢٧.

التطور التاريخي)[٣٨]. ولكن، يتبادر إلى الذهن تساؤلٌ جوهري وهو: متى يظهر الوعي الطبقي الحقيقي لدى البروليتاريا بخاصة وكيف؟

يمكن القول مع لوكاش بكون المجتمعات ما قبل الرأسمالية قد اشتملت على طبقات اجتماعية عديدة، إلا أنَّها لم تكنْ تحوز الوعي الطبقي الذي يُؤهلها لإحداث التأثير في مَسار الأحداث التاريخية. ولعلَّ تفسير ذلك يتمثَّل في أنَّ مجتمع ما قبل الرأسمالية لم تكن البنية الاقتصادية- الصناعية فيهِ واضحة المعالم وعلى أساس المصالح الطبقية المُتباينة، نظراً لِكون هذه المصالح أصلاً لم تكنْ مُتبلورةً هي الأُخرى. بدليل أنَّ بُنيةَ المجتمع الاقتصادية بعامة تَتحِدُ فيها العناصر الاقتصادية بالعناصر السياسية والدينية على نحوٍ وثيق للغاية. وعليه، فإنَّهُ مع ظهور البرجوازية والرأسمالية الصناعية فقط، أخذَ الوعي الطبقي الحقيقي مَسارهُ نحو التبلور، لأنَّ سيطرة البرجوازية على البُنية الاقتصادية كانت تعني تلاشي نظام دويلات المدن وتوحيدها ضمن إطار الدولة-الامة، وفي الوقت عينهِ "كان النظام الاجتماعي يتجهُ صوب تقسيمٍ مَحض طبقي متعصب"[٣٩].

تُشيرُ زاوية النظر هذهِ التي يَتقاسَمها لوكاش وماركس، إلى أنَّ الفارق بين البُنية الاقتصادية للرأسمالية وبين مَثيلَتها في المجتمعات ما قبل الرأسمالية فارقٌ عميق، إذ يتجسدُ في كون المجتمع ما قبل الرأسمالية يُمثل وحدةً اقتصادية أقل تجانساً واندماجاً مقارنةً مع المجتمع الرأسمالي، وأنَّ إستقلالية الفُرَقاء في الأول أكبر بكثير، كما أنَّ تَرابُطَهُ الاقتصادي مَحدود وأقلُ تطوراً منه في المجتمع الرأسمالي. فالفُرقاء في المجتمع ما قبل الرأسمالية: إمّا يعيشون على

[٣٨]لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، مصدر سابق، ص٥٤.

[٣٩]أنظر المصدر نفسه، ص٥٦.

أساس الإكتفاء الاقتصادي (تعاونيات قَروية) من حيث انتاج وتداول السلع وتبادلها، أو أنَّ تداول السلع لم يكنْ يَلعبُ أيَّ دورٍ في حياة المجتمع الاقتصادية، ومثال ذلك واقعُ حال شرائحٍ مهمة من المواطنين في دويلات المدن اليونانية وكذلك الدولة الرومانية[٤٠].

إلا أنَّ ما يُميِّزُ منظورَ لوكاش هو تفصيلهُ لفكرة ماركس القائلة بأنَّ الوعي الطبقي ظَهر في عصر الرأسمالية فقط، وأنَّ الرأسمالية أسقَطتْ كافّة الحواجز داخل الدولة الواحدة كما تجاوزت المُعوِّقات القانونية والسياسية بين الدول. فالبرجوازية عند لوكاش حين كانت تقود الثورة الاقتصادية بوصفها العامل التاريخي المُحرِّك لثوراتها السياسية إنَّما كانت تَضطهد البروليتاريا وتساعدها في الوقت نفسهِ على بلورة وعيها الطبقي، بحيث كانت "تقوم بهذه الوظيفة بدون وعي" منها. ومع ظهور البرولتياريا على مسرح التاريخ بَرَزَ "الوعي الطبقي الحقيقي" إلى حيِّزِ الوجود، نظراً لأنَّ وضعها الطبقي لا يمكن فهمُهُ إلا بمعرفة المجتمع والظروف الموضوعية بصورةٍ كلية[٤١]. أي أنَّ الرأسمالية تدفع إلى نمو الوعي الطبقي لدى البرجوازية بادئ ذي بدء، بيد أنَّهُ "وعيٌ زائف" تعمل البرجوازية على التوسيع من نطاقهِ مجتمعياً، نتيجةً لشيوع ظاهرة التشيؤ التي تحوي البرجوازية والبروليتاريا على حدٍّ سواء، وكذلك بفعل انخراط البرجوازية نفسها في علاقة السيطرة على الطبيعة بصفة عامة، التي تشتمل على سعيها الحثيث للسيطرة على البروليتاريا بوصفها مجرد "شيء".

[٤٠] للمزيد من التفاصيل أنظر المصدر نفسه، ص ص٥٦، ٥٩-٦٩.

[٤١] للمزيد من التفاصيل أنظر المصدر نفسه، ص ص٢٨-٢٩.

وهذا ما يُدخل البرجوازية نفسها وبصورة ذاتية في وضعية الصراع على جَبهتَين، مع بقايا الاقطاع والبروليتاريا في آنٍ واحد[٤٢].

تأسيساً عليهِ، يُمكن القول بأنَّ العلاقة بين ظاهرة التشيؤ والرأسمالية من زاوية نظر لوكاش أشبهُ ما تكون بالعلاقة بين الرغبة الذاتية للإستسلام وبين الهيمنة السياسية. ذلك أنَّ الاستسلام بفعل التشيؤ من جانبِ الذات المُستَسلِمة (البروليتاريا)، سيقودُها لِتكون جزءاً من القوة المادية والفكرية المهيمنة (النظام الرأسمالي)، أو على الأقل يتم تسويقهُ بهذه الصورة من قبل البرجوازية في أوساط غيرها من الطبقات. فالبرجوازية عادةً ما تُسوِّق فكرة أنَّ الرخاء يكون معها وفي ظلِّها فقط، وهو يُعَّد بمثابة آلية مركزية لإغراء "الآخر" طوعاً أو حتى كرهاً ربَّما. أي أنَّ الرغبة الذاتية في الاستسلام للتشيؤ وهيمنة الرأسمالية إنَّما تتم عادةً بهدفِ تحويل هذا الاستسلام الذاتي إلى مصدرٍ رئيس للقوة ولكن من منظورَين متفاوتَين: أولها إنَّ الرأسمالي يسعى لتحقيق هيمنتهِ الاقتصادية والسياسية عبر الاستناد إلى فكرةٍ منطقية، وهي أنَّ الناس تَكرهُ ما تجهلهُ، فإذا زالَ جهلها وأدركتْ كون النظام الرأسمالي يصبُ في دائرة منفعتهم المادية، فمن المرجّح أن يندمجوا فيه طوعاً. كما أنَّ أيَّ وعيٍ طبقي آخر يُعارض هذا النظام سيتم اعتبارهُ معارضةً صريحة للمصلحة العامة مما يُبيح استخدام القوة للتخلص منها. أما المنظور الثاني فيتمثل في كون البروليتاري يسعى من جانبهِ أيضاً إلى إشباع حاجاتهِ والنقوصات التي تَعتَورُ ذاتهُ المستسلمة وواقعها المَعيش بهدف حيازة القوة. أي يعمل على إتمام ذاتهِ المنقوصة بواسطة الانتفاع من النظام

[٤٢] قارن مع: لوكاش، "الإيديولوجية البرجوازية وتناقضاتها"، في، ميشيل فاديه، الإيديولوجية، مصدر سابق، ص٦١. أنظر أيضاً وقارن مع: ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو، جدل التنوير: شذرات فلسفية، ترجمة د. جورج كتّورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٦، ص ١٠٩.

الرأسمالي وتلبية الاحتياجات التي يَعِدُ بها. وبالنتيجة، فإنَّ شَيْئَنَةَ طبقة البروليتاريا تعني استمرارية وعيها الزائف واستئصال حافزها الثوري، أي الوعي الطبقي الحقيقي، فتغدو بالنتيجة مجرد طبقة مدافعة عن النظام، أو على الأقل صامتة عن مطلب الثورة وإحداث التغيير، وغير مُبالية لما يدور حولها من استغلالٍ طبقي.

وما يُعزِّزُ من هذا الرأي هو تشكيكُ أكسل هونيث، ممثل الجيل الثالث لمدرسة فرانكفورت، في أصل الفرضية الماركسية بأنّ البروليتاريا ذاتٌ اجتماعية واحدة تتمتع بمصلحة مشتركة ووعي طبقي ثوري. فالواقع التجريبي لم يُسفر عن إمكانية وجود مثل هذه الصلة الوثيقة بين الوعي الطبقي الحقيقي وبين البروليتاريا بوصفها حركة اجتماعية ثورية، وما إذا كانت هذه الحركة موجودة عملياً. بل إنَّ هونيث يُرجِّحُ صوابَ تشكيك الجيل الأول من الفرانكفورتيين مثل ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو، بشأن وجود طبقة عمالية ثورية في يومنا الراهن. ذلك أنَّ علاقات العمل والانتاج أخذت بعد العام ١٩٤٥ تتغيَّر بسرعة كبيرة في الدول الرأسمالية. فقد تغيَّرت الهيكلية الطبقية التقليدية (الثنائية) إلى هيكلية أخرى تعددية في "المجتمع ما بعد الصناعي"، بحيث أنَّ فئات الموظفين باتتْ هي التي تتحكَّم أكثر فأكثر في سوق العمل، كما لم يعد ثمة وجود فعلي لأي بروليتاريا ثورية. إذ أنَّ فئات العمال الصناعيين تحولت إلى أقلية وسط كلِّ مَنْ يعتاشون على الأُجور من جهة، ناهيك عن اندماجهم في النظام الرأسمالي وخُسرانهم لِنَزعتهم الثورية من جهةٍ أُخرى. وبالنتيجة تمَّ القضاء على وجود الارتباط الطبقي للبروليتاريا بالحركة الاشتراكية بصفةٍ عامة. "ومع انطفاء كل أمل في أنْ نجد في البروليتاريا أية بقية مما نُسِبَ

إليها من مصلحة في التغيير الثوري، كانت الاشتراكية قد أُصيبتْ في صميمها"[٤٣].

**الخاتمة**

انقسم ماركس ولوكاش بشأن ظاهرة التشيؤ إلى رأيَين، وكلٌّ منهما يُفضي إلى نتائج مختلفة نسبياً: أولهما أنَّ ماركس يؤكِّدُ على كون التشيؤ يتولَّد بفعل الاغتراب والوعي الزائف في صفوف البرجوازية أول الامر، ثم يتسع تدريجياً ليشمل المجتمع بأسرهِ. وثانيهما رؤية لوكاش، إذ يؤمن بأنَّ التشيؤ هو السبب المركزي وراء توليد الاغتراب والوعي الزائف. هذا الاختلاف في زاوية النظر أفضى بدورهِ إلى اختلاف آخر بصدد طبيعة العلاقة الثنائية في ظلِّ ظاهرة التشيؤ ما بين البروليتاري بوصفهِ الطرف الخاضع، وبين البرجوازي بوصفهِ الطرف المُهيمن ضمن النظام الرأسمالي. فالتشيؤ إنَّما يتوسَّعُ مجتمعياً وبشكلٍ تدريجي نتيجة لِعمليَتَين مُتداخلَتين للغاية: أولاهما التشيؤ الذي يتولَّد في أوساط البرجوازية، ثم قيامها بنقل التشيؤ إلى البروليتاريا تدريجياً بواسطة تشغيل الأخيرة ودمجها في المصانع والشركات الصناعية. وهنا لا يختلف لوكاش مع ماركس. أما العملية الثانية فهي التشيؤ الذاتي، أي قيام البروليتاريا بِشَيْئَنَةِ نفسها ذاتياً وعن غير إرادةٍ ووعي حقيقي منها. هذا العامل الذاتي وفاعلية تأثيرهِ يختلف فيهِ لوكاش مع ماركس. ذلك أنَّ لوكاش لا يَعزو مجمل التغييرات التي تُحيطُ هُوية وهيكلية المجتمعات ما قبل الرأسمالية الصناعية، ولا التي أصابتها في عُمق علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية لاحقاً، إلى تأثير القوى المادية الحاكمة لظاهرة التشيؤ الرأسمالي وحدها، أي "قوى الإنتاج"، و"قابلية تبادل السلعة"، و"تقسيم العمل" وأهمية عنصر "الزمن". إذ أنَّ فاعلية هذه الظاهرة

[٤٣] لمزيد من التفاصيل أنظر أكسل هونيث، فكرة الاشتراكية، مصدر سابق، ص ص ٧٢-٧٤، ٧٥- ٨١.

لديهِ مُعززةٌ بباعثٍ آخر يتجسّدُ في القابلية الذاتية للتشيؤ في أوساط البروليتاريا نفسها. ومع ذلك، يتقاسم هذان التفسيران فكرةً بقاء روحية الثورة والقدرة التغييرية لدى قسمٍ غير قليل من البروليتاريا، بحكم حيازتها للوعي الطبقي الحقيقي وليس الزائف.

ومع ذلك، يستطيعُ الباحث القول بأنَّ منظورَي ماركس ولوكاش إلى التشيؤ لا يستطيعان معالجة أسئلة أُخرى مثل: لماذا لم تنجح البروليتاريا في تفجير الثورة العمّالية في الدول الصناعية رغم حيازتها للوعي الطبقي الحقيقي؟ وهل الهيكلية الطبقية للنظام الرأسمالي ستبقى على حالها أم سيُصيبها التغيير النوعي، بالشكل الذي يتجاوز البروليتاريا ومقدرتها الثورية حيال النظام الرأسمالي؟ وماذا لو نجحت البرجوازية في تعميم الوعي الزائف ليحل محل الوعي الحقيقي بصورةٍ كلية وعبر توسيع دائرَتَي التشيؤ والاغتراب؟ ومن ثمَّ، فإنَّ بقاء مثل هذه الأسئلة دون إجاباتٍ صريحة دفعت بالنظرية الماركسية للتحول إلى أيديولوجية سياسية (الجمود العقائدي)، بحيث أخذت تقضم طروحات غيرها من الاتجاهات الاشتراكية غير الماركسية بوصفها مثالية وغير علمية، وأنَّ الماركسية–اللينينية وحدها تحوز الحقيقة غير القابلة للنقض والتشكيك، ولا سيَّما من حيث تركيزها على فاعلية دور البروليتاريا وحيازتها الحتمية للوعي الحقيقي دون غيرها ممنْ يُهيمنُ عليهِ الوعي الزائف.

وكذلك يُؤخذُ على لوكاش أنَّه لم يتوسَّع في منظورهِ إلى "التشيؤ" ليشمل دراسة الجوانب غير المادية أو المعيارية بخاصة من مثل: الاخلاق والقيم وسيكولوجية البروليتاريا، أو بيان رؤيتها لماهيّة الخير والشر. ولعلَّ ذلك قد نجمَ عن كون لوكاش ظلَّ معتقداً بأنَّ ظاهرة التشيؤ غدتْ تشمل شتّى مناحي الحياة المجتمعية، ومن ثمَّ فهي مُتشيئة أصلاً وذات طبيعة واحدة وشاملة. فالتشيؤ لديهِ،

غيَّرَ من طبيعة الانسان والمجتمع "الإنسانية" إلى طبيعة ثانية، مادية وأنانية للغاية، بحيث تنظرُ الذاتَ إلى كلِّ ما يُحيط بها من زاوية المنفعة، سواءً تعلق الأمر بالموضوعات أو الأشخاص أو المشاعر والأحاسيس الخاصة بالذات نفسها. فالكل الاجتماعي سيتحوَّل إلى شيء، أو يصبح موضوعاً للإنتفاع المادي حالما يتم ادراك ما يجري تقديمهُ من نفعٍ ومصلحة في سياق المعاملات والصفقات الاقتصادية بعامة.